

كتاب بحث عن مواطن الإرهاب الحقيقي

د. محمود سليمان *

والتعمودية والنماذج السلوكية للسياسة الصهيونية التي ما نجحت إلا في إنتاج العنف والاضطهاد والإرهاب لكل ما هو غير يهودي، حتى أصبح الأمر ثقافة أكثر منه أيديولوجيا، ونمطا سلوكيا كامنا في صميم الشخصية وبنيتها الأساسية أكثر منه رد فعل أو خياراً أو إجراء مؤقتاً أو ظرفياً، وهذا ما يفسر أن الصهيونية لا تعيish إلا في منح العوان والحقد والكراهية للأخر بما لا يفسح المجال لأي مستوى من التعاطف والرحمة. ففي هذا النوع من المشاعر نفي للذات واعدام لمجرد وجود الصهيونية القائم على مثلث العنف والاستيطان والعنصرية.

من هنا نفهم مغزى الإشكالية التي أثارها المؤلف في كتابه بدءاً من العنوان "ثقافة العنف". فالصهيونية امتلكت مشروعاً لإعادة تشكيل التفكير والمعرفة والسلوك والتفضيلات والمواقف والنظرة إلى الذات والأخر والكون والمرجعيات الجماعية، وصولاً إلى آليات إعادة إنتاج الشخصية اليهودية داخل كيان خاص هو "إسرائيل". والصهيونية في هذا أفضت إلى كيان سياسي لم يتحول بعد إلى مجتمع، لذلك يصح القول أن "إسرائيل" كيان يقف على رأسه سعيداً بما لديه، غير آخذ بعين الاعتبار الواقع المتعين وما فيه من تضاريس وحقائق ووقائع.

ولعل الجديد والمفيد في الكتاب هو التحليل السوسولوجي للأسس والجذور التي أنتجت العنف الصهيوني، ولا تزال تعيد إنتاجه بفعالية، حيث الكل أوفياء لتراثهم الإرهابي. وهم في الحقيقة لا يملكون ولا يستطيعون إلا الالتزام بهذا النمط السلوكي، فهم

وتمته وحاصل إنتاجه، بمن فيهم اللبكد والعمل، البيون واليسار الحماقم والصقور، إلى غير ذلك من التسميات والأوصاف المتأتمسة.

يقدم الباحث في أحد محاور الكتاب المهمة قراءة سيكولوجية للعنف الإسرائيلي انطلاقاً من تساؤلات طرحت منذ الانتفاضة بتعلق بحالة عدم الاكترال في الرأي العام الصهيوني بكل ردود الفعل التي تغيرها أعمال القتل والصقوبات الجماعية لآلة الاتيات الدفاعية التي تلجأ إليها الشخصية الإسرائيلية لتحمي نفسها من ردود الفعل التي يغيرها ألم الضحايا وصراخهم، وتلخص نفسها من وطاة الشعور بالذنب والندم. في هذا المحور المهم يطرح الكتاب مقاربة سيكولوجية وسوسولوجية من خلال التركيز على تحليل ثلاثة جوانب في الشخصية الإسرائيلية هي على التوالي معرفية وانفعالية وسلوكية. ويشير إلى أن التنشئة السياسية والأيدولوجية لها أيتها وحيثياتها التي تقوم على التعمية والاستنهاض، كما انها تتركز على أهمية شعور الفرد وكذلك المجموعة بالاضطهاد (البارانونيا).. وبهذا يتشكل نمط سلوكي لدى الإسرائيلي يقوم بإزاحة القلق وحل الأزمة عن طريق التفاوض عن المشاعر "الغيرية" من خلال إنكاره للألم الذي يلحقه بالضحايا والقاء المسؤولية على الضحية نفسها. لذلك لا مجال للتعاطف والرحمة عند اليهودي الإسرائيلي، ليس لأنه فقد إنسانيته، بل لأن المجتمع الذي يعيش فيه تقرر سلوكياته بما يخدم "آلية التجميع" التي كلما وهنت عملت

إنما كان الإرهاب كما يرى المؤلف ليس أمراً عرضياً أو ظرفياً في تاريخ "إسرائيل"، بل هو مركب عضوي وأساسي في الصيغة الصهيونية المعاصرة، فتلك نتيجة انتهى إليها هذا الكتاب متدرجاً في ذلك من رصد الأساليب الفكرية والعقائدية والنفسية التي تترسى عليها اليهود عبر العصور والأزمان، وما أفرزته من ممارسات سلوكية مع الآخر، بحيث أفرزت بشكل جلي هذا الترابط عند الصهاينة ما بين الفكر والسياسة والعقيدة والسلوك، كما بين الخرافة والأسطورة من جهة والواقع والحقيقة من جهة أخرى، ففي ثمانية فصول ضمها الكتاب كانت إجماع علم اجتماع المعرفة وتقنياته واضحة في منهاجها الفكرية معرفية لكشف الطبقات التي تشكلت منها الذهنية الإسرائيلية المعاصرة بأسلوبها الصهيونية ومرجعياتها التراثية والتعمودية، وكان من الطبيعي أن يوفق المؤلف في هذا الجانب الذي هو من صميم اختصاصه الأكاديمي.

ذهب المؤلف عميقاً نحو المتولوجيا المؤسسة للعنف التي تدعى الصهيونية، انها تستلهم ما تفتله منها على قاعدة "الشعب المختار" وأرض الميعاد" التي تحولت مرجعية عقيدية تزعم الاصطفاء والاستثناء وتدعي القداسة وتمارس الاستعلاء والعداء تجاه الآخر "الغوييم"، وهم عموماً غير اليهود، والذين هم إلى الحيوانيات أقرب حسب التعريف التوراتي والتعمودي.

وأخطر ما في هذه الأفكار العنصرية هو تغليفها بزعام دينية والصاقها بالرب وعلى لسانه، واستدعاؤها من التاريخ القبلي السحيق وإسقاطها على الواقع الراهن لتقوم بتطيئة سياسية على حساب شعب آخر نشأت الصهيونية مستندة إلى فيض من الأساطير ملأت برموزها حياة اليهود، ورسمت بنموذجها سلوكهم، وأضافت إلى رصيدهم عداء من تبقى من الشعوب، وخاصة بعد انخياز الاستعمار وتبنيه قيام دولة يهودية تحت الشعار الزائف: شعب بلا أرض لأرض بلا شعب، وهي التي قامت بالعنف والإرهاب واقتلاع الآخرين وإبادتهم. إن قراءة متأنية في فصول الكتاب الأولى تظهر بوضوح الترابط المحكم بين المرجعية التوراتية

الحكومات والأحزاب والمؤسسات الموازية على استنهاضها، ومن يخرج عن آلية الاستيطان هذه يذمت بالخيانة أو "اليهودي كاره نفسه"، ومن يندمج ويتمناه مع هذه الآلية يصبح بطلا أو مواطناً صالحاً. وليس أدل على ذلك من النهاية البائسة لمن خرج عن الخط الصهيوني العام، ولعل مسألة السوسولوجيين الجدد التي يتوقف عندها المؤلف بالتحليل والنقد خير دليل على ذلك، برغم ما أثارته من نقاشات مهمة في الداخل الإسرائيلي.

تبقى الإشارة إلى أن ما يحذر منه المؤلف هو إعادة إغماش سياسات الترانسفير والتهمجير التي يستعرضها بعمق، متتبعا مراحلها منذ قيام الكيان الإسرائيلي. وهو يقرأ في هذه السياسات ما يوحي بإعادة طرحها وتبنيها مع عودة شارون وما يمثله من اتجاه عنصري لا يقيم وزناً إلا للقوة والعنف. إن كتاب ثقافة العنف في سوسولوجيا السياسة الإسرائيلية يشكل إضافة مهمة إلى خزنة الفكر العربي، إنه يشير إلى مواطن الإرهاب الحقيقي في هذا العالم، وقد جاء في وقته ليساهم في النقاش حول هذه المسائل، ونجح في توظيف السوسولوجيا والبحث الأكاديمي في قضية الأمة معرفتها الأساسية، مستفيداً من مراجع حديثة ومتنوعة شملت بعض ما كتبه أكاديميون يهود من مختلف الاتجاهات وذلك من خلال قراءتها نقدياً، وهو ما كان يتهيب منه بعض الباحثين العرب.

وإنما كان التكثيف هو السمة الغالبة على الكتاب، فإن ذلك خفف من مساوئ الانتفاضة والتكرار التي يقع فيها البعض. لقد طرح الكتاب الوقائع والأحداث والنصوص بشيء من التكثيف، لكنه أعطى للتحليل والمقارنة والنقد المساحة الكافية لاستخلاص النتائج، بما يغير التساؤلات التي تستنفر العقل والذهن والادراك في وقت أحوج ما تكون فيه إلى درء الأخطار عن الانتفاضة الفلسطينية بكل ما لها وما فيها من أفاق وآمال وأحلام.

(*) باحث وأستاذ جامعي لبناني
الكتاب: ثقافة العنف في سوسولوجيا السياسة الإسرائيلية
المؤلف: د. عبد الغني صعاد
التأشير: دار الطليعة - بيروت - ٢٠٠١.